مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 642 - 656 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

معالم التفسير اللّغوي عند الشيخ باي بلعالم من خلال كتابه : ضياء المعالم

The features of sheikh Bay Belaalem's linguistic Interpretation Through his book: Dia Al-Maalim

عبديش براهيم *

Abdiche brahim

جامعة غرداية . الجزائر .

University of ghardaia

abdiche.imam@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/11/08	تاريخ القبول:2021/05/19	تاريخ النشر : 2021/11/04

ملخص البحث

يسلّط هذا البحث الضوء على جانب من اهتمام الشيخ العلّامة باي بلعالم بالتفسير اللغوي من خلال شرح ألفية غريب القرآن للزّجلاوي في كتابه : ضياء المعالم شرح على ألفية الغريب لابن العالم، يظهر ذلك جليّا في اهتمامه باشتقاق الكلمة وأصل استعمالها العربي، ومعاني الألفاظ حال الإفراد وحال التركيب، إضافة إلى تطرّقه لبعض التعليلات النحوية، والتوجيهات الإعرابية، وتوظيف الشواهد الشعرية التي تخدم التفسير، معتمدا في ذلك كلّه على الرواية عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين في المقام الأول، ثمّ على أقوال أئمّة اللغة وأساطينها، وبذلك يتميّز منهجه بالجمع بين أصول علم التفسير وقواعد اللّغة العربية .

الكلمات المفتاح : باي بلعالم، تفسير، غريب القرآن، منهج، خصائص .

Abstract :

This research sheds light on a side of Sheikh Bay's Belaalem interest in linguistic interpretation by explaining the millennium of "Gharib al-Qur'an" to al-Zajlawi in his book: "**Dhiaa al- Maal'im"** Explanation on the Millennium "**of al-Gharib"** by Ibn al-Alam, and it is perceptibly revealed within his interests on the origin of the word's Arabic usage, besides its syntactic issues of the words or terms in case of used alone or compound. Furthermore, his deal to some of the explanations of grammatical and guidance syntactic, employing poetic evidence serving interpretation, relying in this whole novel upon The Prophet (peace be upon him) and the companions and followers in the first place, then on the sayings of the scholars of language and its researchers. Thus, his method is well-known by combining the principles of the science of exegesis and the grammar of the Arabic language.

* عبديش براهيم abdiche.imam@gmail.com

Keywords: Bay Belaalem; interpretation; Gharib al-Qur'an, method; characteristics

مقدمة :

يرتبط علم التفسير ارتباطا وثيقا باللّغة العربية ومعرفة علومها، ذلك لأنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيّ مبين، على أحسن ما تعرفه العرب من فنون الخطاب ودلائله، وقد اشترط العلماء على من يتصدّى لمهمّة التفسير أن يكون على دراية تامّة بقواعد اللغة العربية وأصولها ودلالاتها، وعلى جانب كبير من التمكّن بعلومها، وقد وضع ابن عباس رضي الله عنهما الحجر الأساسي لهذا الاتجاه اللّغوي في التفسير، ثمّ تتابع العلماء عبر العصور في تشييد صرح هذا البناء، ويعتبر الشيخ باي بلعالم رحمه الله في عصرنا هذا ممن وضعوا لبنة في هذا البناء وساهموا في الحفاظ عليه تدريسا وتأليفا، وكتابه : ضياء المعالم شرح على ألفية الغريب لابن العالم حافل بهذا النوع من التفسير، فما هي معالم التفسير اللغوي عند الشيخ باي من خلال هذا الكتاب ؟ وما الخصائص التي ميّزت منهجه اللغوي فيه ؟

وللإجابة على هذه الإشكالية ستناول الموضوع في العناصر التالية :

. أولا : مدخل

. ثانيا : المنهج العام للشيخ باي في التفسير اللّغوي

. ثالثا : خصائص التفسير اللّغوي عند الشيخ باي

مع إيراد نماذج تطبيقة في كلّ جزئية من جزئيات البحث

أولا : مدخل للبحث

ويتضمّن ترجمةً موجزة للشيخ باي بلعالم ووصفا عامّا لكتابه ضياء المعالم وتعريفا للتفسير اللّغوي.

1 . ترجمة موجزة للشيخ باي بلعالم : هو محمّد بن عبد القادر بن محمّد بن المختار بلعالم الفلاني، المشهور بالشيخ باي، من مواليد 1348هـ . 1930م بقرية ساهل بآولف[1]، تعلّم مبادئ الفقه واللغة على يد والده، ثم انتقل بعدها إلى سالي ليتتلمذ على الشيخ مولاي احمد الطاهري الذي أجازه ،[2] ليعود إلى آولف ويؤسّس مدرسته المعروفة حاليا بمدرسة مصعب بن عمير، وللشيخ رحلات كثيرة داخل الوطن وخارجه اكتسب منها علاقات وطيدة مع الكثير من العلماء والأعلام وثّق ذلك في كتب منها :

الرحلة العليّة إلى منطقة توات (جزأين)، ورحلات إلى الحجاز، ورحلة إلى المغرب الأقصى[3]، توفي رحمه الله صباح يوم 23 من ربيع الثاني 1430هـ الموافق ل : 19 أفريل 2009م، ودفن بمقبرة الجديد بآولف، ترك الشيخ رحمه الله تراثا ضخما من المؤلّفات والتصانيف في الفقه والحديث وعلوم القرآن والتفسير واللّغة ومنها : كتاب ضياء المعالم شرح على ألفية الغريب لابن العالم الذي هو موضوع بحثنا .

2 . الوصف العام لكتاب " ضياء المعالم " : هو شرح لمنظومة تعليمية في غريب القرآن تسمّى ألفية الغريب للزجلاوي اعتنى بها الشيخ ودرّسها لطلابه ووضع هذا الكتاب تسهيلا لألفاظها وتقريبا لمعانيها، مستعينا بأمّهات كتب اللّغة والتفسير، مُدليا بدلوه في هذا الفنّ ومشاركا في هذا العلم . علم التفسير . فظهرت براعته فيه، وتجلّت سعة اطّلاعه على مظانّه ومراميه .

3 . تعريف التفسير اللّغوي : من المعروف بداهة أن التفسير اللّغوي جزء لا ينفكّ عن علم التفسير، ومضمونه ليس بدعا في الدراسات القرآنية واللغوية، غير أنّه كمصطلح متعارف عليه في علم التفسير لم يظهر إلا عند المتأخرين، وهذه بعض تعريفاتهم له :

عرّفه الدكتور مساعد الطيّار بقوله : " هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب " ثم شرح ذلك بقوله : والمراد بما ورد في لغة العرب : ألفاظها وأساليبها التي نزل بها القرآن "[4]

وعرّفه الذهبي : " بأنه التفسير الذي يُبنى على قواعد نحوية أو بلاغية "[5]

ثانيا : المنهج العام للشيخ باي في التفسير اللّغوي : يمكن أن نلخّص منهجه في العناصر التالية :

أ . الاهتمام باشتقاق الكلمة وأصل استعمالها العربي : يُعطي الشيخ باي اهتماما بالغا لعلم الاشتقاق الذي هو : " أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادّة أصلية وهيئة تركيب لها ليدلّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة "[6]، فلا يكاد يمرّ بكلمة إلا وبيّن اشتقاقها وأصل استعمالها في الوضع العربي، فعند شرح كلمة انفضوا الواردة في قوله تعالى : " لانفضوا من حولك " [آل عمران : 159]، وقوله تعالى " لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا " [المنافقون : 07] قال : وأصل الفضّ في اللغة : الكسر يقال : فضضت الخاتم فضّا :كسرته "[7]

وعند قوله تعالى : " بضع سنين " [يوسف : 42] قال : "واشتقاقه من بَضعت الشيء أي : قطعته فهو قطعة من العدد "[8]

وعند قوله تعالى : " ولا يستحسرون " [الأنبياء : 19] أي : لا يكلّون ولا يتعبون، مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب، يقال : حسَر البعير، يحسُره، ويحسِره أي : ساقه حتى أعياه كأحسَره، واستحْسَرت أعيت وكلّت ... وحسَر البصر يحسُر حسُورا كلّ وانقطع من طول مدِّه "[9]

وعند قوله تعالى : " وترى الفلك فيه مواخر " [فاطر : 12] أي : تشُقّ الماء شقّا، يقال : مخَرَت السفينة تمخُر وتمخِر مخرا ومُخورا، إذا جرت تشقّ الماء بمَقْدَمِها، وأصل المخر الشقّ، يقال : مخر الماء الأرض إذا شقّها "[10]

وعند قوله تعالى " فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم " [النساء : 65] يقال : شجر بينهم الأمر، يشجُر، شَجْرا وشُجُورا : إذا تنازعوا فيه، وأصله التداخل والاختلاط، ومنه : شجر الكلام : إذا دخل بعضه في بعض واختلط " [11]

وكثيرا ما يستدلّ الشيخ باي لأصل الكلمة واشتقاقاتها بما ورد في كتب اللّغة والتفسير من ذلك قوله : " ... جَنَفًا أي ميلا عن الحقّ خَطَئا قال قط (القرطبي) جنفا من جنَف يجنِف إذا جار، والاسم منه جَنِفٌ وجانفٌ عن النحاس، وقيل الجَنَف الميل قال الأعشى :

تَجَانَفَ عن حِجْر اليمامة ناقتي وما قَصَدَتْ من أهلها لسوائك

وفي الصحاح : الجَنَف الميل وقد جَنِف بالكسر، يجْنِف جنَفا إذا مال، ومنه قوله تعالى : " فمن خاف من موصٍ جنَفا " [البقرة : 182] قال الشاعر :

هم المولى وإن جنَفوا علينا وإنّا من لقائهم لزور

... يشير بذلك إلى قول مجاهد : فمن خاف : أي خشي أن يتجنّف الموصي ويقطع ميراث طائفة ويتعمّد الإذاية أو يأتيها دون تعمُّدٍ، وذلك هو الجَنَف دون إثم، فإن تعمّد فهو الجنف في إثم "[12]

ب . بيان المعنى الذي يحمله السياق : قد يكون للكلمة أكثر من معنى ولا يُتبيّن المقصود منها إلاّ بمعرفة ما احتفَّ بها من القرائن السابقة واللاحقة، وهو ما يُعرف بدلالة السياق وهو : " ما يدلّ على خُصوص المقصود من سابق الكلام المسُوق لذلك أو لاحقِه " [13]، وهو أصل من أصول التفسير، وقد اعتنى الشيخ باي بهذا الدلالة في شرح الألفاظ القرآنية، فنجده مثلا عند كلمة : إيلافهم من الآية :" لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف " [قريش : 01] قال : أي : أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد أَلِفوا من رحلة الشتاء والصيف " [14]، فربط بين السابق واللاحق لتجلية المعنى، وهو

ما يعرف بالسياق اللفظي الذي قال عنه القرطبي بأنّ : " أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقَته لما سبق من القول، واتّفاقَه مع جملة المعنى، وائتلافَه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملة "[15].

ونجده أيضا عند قوله تعالى : " وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله " [الروم : 39] قال : " أي : صدقة تطوع، ولم تُحمل على المفروضة لأنّ السورة مكّية، والزّكاة لم تُفرض إلاّ في السنة الثانية من الهجرة"[16]

فانظر كيف استعان بالسياق المقامي (الخارج عن النّص) لبيان المعنى المخصوص لكلمة (زكاة) في هذه الآية .

ج . التعرض لاختلاف القراءات وتوجيهها : فما من لفظة لها وجوه في القراءات القرآنية (المتواترة والشاذة) إلّا وتوقّف عندها، وبيّن الوجه الذي قُرئت عليه، والمعنى الذي تحمله كلّ قراءة، وذلك لأنّ تنوع القراءات بمنزلة تعدّد الآيات كما هو مقرّر في قواعد التفسير [17]

ومن أمثلة القراءات التي نبّه عليها ووجّهها : قوله تعالى : " فأزلّهما الشيطان " قال : يعني : أنّ أزال هي أزلّ في قراءة حمزة " فأزالهما الشيطان عنها " من الزوال أو حملهم على فعل الزلّة [18]

وقوله تعالى : " وقولوا حطّة تُغفر لكم خطاياكم " قال : " [البقرة : 58] قال قط (القرطبي) حطّةٌ بالرفع قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ، أي : مسئلتنا حطّة، أو يكون حكاية، قال الأخفش : وقُرئت حطّةً بالنصب على معنى : احطُط عنّا ذنوبنا حطةً ... " [19]

وقوله سبحانه : " إنْ هذا إلا خُلُق الاوّلين " [الشعراء : 137] بضمّ الخاء واللّام أي : ما هذا الذي نحن عليه إلا خُلُق الأولين أي : طبيعتهم، وفي قراءة بفتح الخاء وسكون اللّام أي اختلافهم [20]

وقوله تعالى : " فصِرهُنّ إليك " [البقرة : 260] قال : قرأ الجمهور بضمّ الصاد، والمعنى : أمِلهُنّ إليك، يُقال : صُرت الشيء فصار، أي : أملتُه فمال، أي : فمعنى الكلام : اجمعهنّ إليك ... وقرأ أبو جعفر وحمزة وخلف والمفضل عن عاصم : فصِرهُنّ إليك بكسر الصاد، قال اليزيدي : هما واحد، وقال ابن قتيبة : الكسر والضمّ هما لغتان، وعن السدّي : أنّ معنى المكسورة الصاد قطِّعهُنّ، ورُوِيَ عن أبي عبيدة أنّه قال : معناه بالضم اجمعهن وبالكسر قطِّعهنّ ..." [21]

د . ذكر بعض الروايات المأثورة التي تشرح الكلمة : يُورد الشيخ باي رحمه الله الكثير من الأحاديث والآثار التي توضّح المعنى المراد، ويعتمد خاصّة على أقوال أئمة التفسير من الصحابة والتابعين وعلى رأسهم ابن عباس وتلميذه مجاهد بن جبر، من ذلك :

اكتفى عند تفسيره لفظة : (الرّان) الواردة في قوله تعالى : " كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " [المطففين : 14] بإيراد الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال : " إنّ العبد إذا أذنب ذنبا نُكتت في قلبه نُكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبُه وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه فذلك الرّان الذي ذكره الله سبحانه ..."[22]

وفسّر كلمة (كنود) من قوله تعالى : " إنّ الانسان لربّه لكنود " [العاديات : 06] فساق حديث أبي أُمامة الباهلي عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : " الكنود هو الذي يأكل وحده ويمنع رِفده ويضرب عبده "[23]

كما أورد تفسيرا لابن عباس عند شرح كلمة (زيت) الواردة في قوله تعالى : " يكاد زيتها يُضيء ولو لمْ تمسَسْه نار " [النور : 35] قال : قال ابن عباس هذا مثَلُ نور الله وهُداه في قلب المؤمن يكاد الزيت الصافي يُضيء قبل أن تمسّه النّار، فإن مسّته النار زاد ضوْءه، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور " [24]

وربما أورد في موضع واحد عدّة أقوال مختلفة فمثلا عند قوله تعالى : " ويأتوكم من فورهم هذا " [آل عمران : 125] قال : أي من ساعتكم هذه، وقال الحسن وقتادة : أي من وجههم هذا، وقال مجاهد وعكرمة : من غضبهم هذا، وقال ابن عباس : من سفرهم " [25]، ولعلّه يُرجّح الأول الذي صدّر به فالتصدير علامة التشهير .

هـ . ذكر بعض التوجيهات الإعرابية : إذْ بمعرفة حقائق الإعراب تعُرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويُفهم الخطاب، وتصِحّ معرفة حقيقة المراد[26]، وممّا أورده الشيخ باي من هذه التوجيهات : قوله تعالى :" فلا اقتحم العقبة " [البلد : 11] أي لم يقتحمها ولم يجاوزها ولا تكون مع الماضي بمعنى لم مع المستقبل كقوله :

إنْ تغفرِ اللّهمّ تغفرْ جمّا وأيّ عبدٍ لك لا ألمّا [27]

وعند قوله تعالى : " لا يألونكم خبالًا " [آل عمران : 118] قال : نُصب بنزع الخافض، أي : لا يقصرون لكم في الفساد[28]

وعند قوله تعالى : " وهي رميم " [يس : 78] أي : بالية، ولم يقل بالهاء أي : رميمة لأنّه اسم لا صفة[29] .

وعند قوله تعالى : " ولو ترى إذِ المجرمون ناكسوا رؤوسهم " [السجدة : 12] قال : " ... وجواب لو محذوف أي : لرأيت العجب ... " [30]

وعند قوله تعالى : " ريحا صرصرا " [فصلت : 41] قال : صرصرًا من قوله : ريحا صرصرا منصوب على الحكاية، وريحًا نُصِب على أنّه مُفسِّر له " [31]

وعند قوله تعالى " تالله تفتؤا تذكر يوسف " [يوسف : 85] قال : " أي لا تزال تذكره تفجّعا عليه، وجواب القسم . لا . المضمرة التي تأويلها : تالله لا تفتؤا، وإنما أُضمرت لأنّه لا يُلتبس بالإثبات، فإنّ القسم إذا لم تكن معه علامة الإثبات وهي اللّام ونون التوكيد كان على النفي " [32]

و. الاستشهاد بالشواهد الشعرية : يعتمد الشيخ باي على الشعر العربي لبيان مدلول بعض الألفاظ وإبراز ما اشتملت عليه التراكيب من معان، وهو مسلك ابن عباس رضي الله عنها الذي كان يحُثّ على الرجوع إليه فيقول : " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر "[33]، وقال أيضا : " الشعر ديوان العرب، فإنْ خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعوا إلى ديوانها، فالتمسوا معرفة ذلك منه ..."[34]، غير أنّه مرة يُسنده لقائله ومرّة لا يُسنده، ومن أمثلة ذلك :

ما ذكره في تفسير قوله تعالى : " فإن لم يصبها وابل فطل " [البقرة : 265] من أنّ الطلّ : هو المطر الشديد الوقع، ... والوابل هو المطر الخفيف، وفيهما يقول الحريري :

إن يكنِ الإسكندَرِيُّ قبلي فالطلُّ قد يبدو أمام الوَبْل[35]

كما استشهد على أنّ الحَرَض المذكور في قوله تعالى : " حتّى تكون حرضًا " [يوسف : 85] يعني : الذي أذابه الحزن والعشق بقول الشاعر :

إنّي امرؤ لجّ بي حُزنٌ فأحْرَضني حتى بَليتُ وحتّى شقّني القسم[36]

وعند شرح كلمة (يُصحبون) من قوله تعالى : "ولا هم منّا يُصحبون " [الأنبياء : 43] قال:

أي يُمنعون ويُجارون ومنه قول الشاعر :

يُنادي بأعلى صوته متعوِّذا ليُصحب منها والرماح دواني [37]

واستشهد على قول من قال بأنّ الزمهرير هو القمر بلغة طيء بقول شاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير وما زهر

ويروى : ما ظهر بالظاء أي : ما طلع [38]

ز. التعرض لبعض المباحث البلاغية : تُعدُّ فنون البلاغة ركيزة من ركائز علم التفسير، لاهتمامها بالمعنى الذي هو المراد تبليغه وتوصيله للمخاطب، من هذا المنطلق نجد الشيخ باي يتوقّف عند بعض الآيات التي تحمل بصمة بلاغية، ويشير إلى بعض اللّفتات البيانية باختصار ومن أمثلة ذلك :

. التشبيه : أورد له عدّة تعريفات في قوله : " التشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها وهو : مشاركة أمر لأمر في معنى كما عرّفه السكاكي، وقال بعضهم : هو أن تُثبت لمشَبّهٍ حُكمًا من أحكام المشبّه به، والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وإدنائه البعيد من القريب ليفيد بيانا، وقيل : الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار " [39]

وقد أشار الشيخ إلى بعض التشبيهات التي تُجلّي المعنى المراد وشرحها، من ذلك قوله عند قوله تعالى : " كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا " [البقرة : 264] أي : أجردَ نقيّا من التراب الذي كان عليه، ... والمقصود : أنّ أعمال المرائين بأعمالهم تبطل يوم القيامة وتضمحلّ كما يُذهب المطر ما على الصفوان من التراب "[40]

وعند قوله تعالى : " لا تتّخذوا بطانةً من دونكم " [آل عمران : 118] قال : " وبطانة الرّجل ووليجته : خاصّتُه الذين يستبطنون أمره ويُداخلونه، تشبيها ببطانة الثوب للوجه الذي يلي البدن لقربه "[41]

وعند قوله تعالى : " مثل نوره كمشكاة " [النور : 35] قال : أي : كصفة مشكاة، وهي الكوة غير النافذة، وهي أجمع للضوء الذي يكون فيها، أكثر إنارة منه في غيرها "[42] بها 181

الاستعارة : عرّفها ثمّ مثّل لها بقوله : " وقال بعضهم : حقيقة الاستعارة أن تُستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يُعرف بها ... " وإنّه في أمّ الكتاب " فإنّ حقيقته : وإنّه في أصل الكتاب، فاستعير لفظ الأمّ للأصل، لأنّ الأولاد تنشأ من الأمّ، كإنشاء الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئيٍ حتى يصير مرئيا فيتنقل السامع من حدّ السماع إلى حدّ العيان وذلك أبلغ في البيان " [43]

ومن أمثلة ما أشار إليه من الاستعارات بنوعيها (التمثيلية والتصريحية) ما أورده عند ذكر قوله تعالى : " ومن الناس من يعبد الله على حرف " [الحج : 11] حيث قال : " ... في الآية استعارة تمثيلية، وهي أنّه نزّل من دخل في الإسلام من غير اعتقادٍ وصحةِ قصدٍ منزلة الحالّ على طرف شيء في تزلزله وعدم ثباته ..."[44]

وعند قوله تعالى : " إذ أبق إلى الفُلك المشحون " [الصافات : 140] قال " أصل الإباق الهروب من السيد، ويطلق على هروب يونس استعارة تصريحية "[45]

الحذف : من أساليب القرآن التي لها الأثر البالغ في تأدية المعنى يقول عنه عبد القاهر الجرجاني : " هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِن "[46]

ومن مواطن الحذف التي أشار إليها الشيخ باي : قوله تعالى : " لابثين فيها أحقابا " [النبأ : 23] حيث نقل كلام القرطبي ومنه : " لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها، فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه "[47]، فاستقام حينئذ المعنى مع الآيات الأخرى التي نصّت على تأبيد الكفار في النار .

وقوله تعالى : " أو كسبت في إيمانها خيرا " [الأنعام : 158] نقل عن الجمل في حاشيته على الجلالين : "... ويكون التقدير : لا ينفع نفساً إيمانها ولا توبتها من المعاصي، ففي الكلام حذف دلّ عليه قوله : " أو كسبت " ويكون فاعل (لا ينفع) أمران حُذف منها واحد ..."[48]، لأنّ سياق الآية يتحدّث عن طلوع الشمس من مغربها وعندئذ لا تنفع التوبة أيضا .

المجاز : من أساليب العرب في التعبير المجاز وهو : " اللّفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينة "[49]، وقد أشار الشيخ باي إلى الخلاف في مسألة وقوعه في القرآن بقوله : " فالجمهور على وقوعه في القرآن، وأنكره جماعة منهم الظاهرية "، ووضّح في كتابه الكثير من الألفاظ والتراكيب التي هي من قبيل المجاز، فعند قوله تعالى : " والارض ذات الصّدع " [الطارق : 12] قال:أي : ذات النبات لتصدّعها وانشقاقها عنه، وأصل الصّدع الشقّ وأطلق على النبات مجازا "[50]

وكذا قوله : " والتين والزيتون " [التين : 01] قال: " أقسم الله به، فالتين مجاز عن نباته في الأرض المباركة"[51]

وأيضا قوله : " وما كان الله ليُضيع إيمانكم " [البقرة : 143] قال: أي : صلاتكم إلى القبلة المنسوخة، فالإيمان مجاز عن الصلاة من إطلاق اللّازم على ملزومه بقرينة المقام[52]

الكناية : عرّفها ومثّل لها بقوله : " والكناية هو لفظ أُريد به لازم معناه، وقال الطيّبي : ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللّزوم، وللكناية أساليب : أحدها : التنبيه على عِظم القدرة نحو: " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " [الأعراف : 189] كناية عن آدم، ثانيها : ترك اللّفظ إلى ما

هو أجمل نحو : " إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة " [ص : 23] فكنّى بالنعجة عن المرأة "[53]، وممّا أورده منها :

قوله تعالى : " ولا تتّخذوا أيمانكم دخلا بينكم " [النحل : 92] قال : والدّخَلُ : العيب، واستعمل فيما يدخل الشيء وليس منه، ثم كنّى به عن الغدر والفساد والعداوة المستبطنة "[54]

قوله تعالى : " كلّا إذا بلغت التراقي " [القيامة : 26] قال : " ويكنّى ببلوغ النفس التراقي على الإشفاق على الموت "[55]

التقديم والتأخير : وهو كما وصفه عبد القاهر الجرجاني : " هو بابٌ كثير الفوائد جمُّ المحاسن، واسعُ التصرّف، بعيدُ الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يرُوقك مسمَعُه، ويلطُف لديك موقعُه، ثمّ تنظر فتجدْ سبَبَ أنْ راقك ولطَف عندك أنْ قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللّفظ عن مكان إلى مكان "[56] . فالتقديم والتأخير هو تغيير ترتيب الكلام لغرض ما .

ومثاله ما أورده الشيخ باي عند قوله تعالى : "وغرابيبُ سُود " [فاطر : 27] قال : " قال القرطبي قال أبو عبيدة : الغربيب : الشديد السّواد، ففي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : ومن الجبال سُودٌ غرابيب "[57] أي : سودٌ كالغرابيب فقُدّم المشبّه به على المشبّه .

اللّفتات البيانية : بيْن فينة وأخرى يُتحف الشيخ باي القارئ بلفتة بيانية تُظهر جمالية النّص القرآني، وتبُرز الحكمة من استخدام ذلك اللّفظ دون غيره نذكر منها :

قوله تعالى : " لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظُلَل " [الزمر : قال : والمراد أنّ النار محيطة بهم إحاطة تامّة من جميع الجوانب، واطلاق الظلة على من تحتهم لكونها ظلة لمن تحتهم من أهل الدركات "[58]

قوله تعالى : " خاشعة أبصارهم " [المعارج : 44] قال :" أضاف الخشوع للأبصار لأن العز والذلّ يتبيّن فيهما ويظهر أكثر من ظهوره على بقيّة البدن "[59]

قوله تعالى : " يجدْ في الارض مُراغَمًا كثيرا وسعة " [النساء : 100] أي : مُتحَوَّلًا ... وعبّر عنه بالمراغم للإشعار بأنّ المهاجر في سبيل الله، يصِلُ في الموضع الذي يهاجر إليه إلى ما يكون سببا لرغم أنوف قومه الذين فارقهم ..."[60]

ثالثا : خصائص التفسير اللّغوي عند الشيخ باي : من خلال تتبّع واستقراء كتاب ضياء المعالم، يمكن القول أنّ تفسيره لألفاظ القرآن تميّز بجملة من الخصائص نذكر منها :

أ . تنوّع المصادر اللّغوية : ويظهر ذلك في استخدامه الواسع للمصادر اللغوية، من معاجم وشروح وتفاسير، فهو يعتمد على المعاجم اللغوية بمختلف مدارسها ومناهجها كالصحاح والقاموس وكتب المعاني، إضافة إلى التفاسير التي تهتم بالجوانب اللّغوية كالكشّاف للزمخشري، وروح البيان للخلوتي، وجامع الأحكام للقرطبي، والمحرر الوجيز لابن عطية، ... وسنورد مثالا يدلّ على هذا التنوّع :

ما أورده تفسيرا ل : (تفنّدون) من قوله تعالى : " إنّي لأجد ريح يوسف لولا أنْ تُفنِّدون " [يوسف : 94] قال : أي : تُكذّبون أو تخطِّئون أو تُخرِّفون أو تُسفِّهون، وبهذه العبارة الأخيرة التي في النظم فسّرها في ردّ الأذهان، وفي الجلالين : لولا أن تفنِّدون : لصدقتمون، وفي الجمل : أصل التفنيد من الفَنَد وهو ضُعف الرأي، ثمّ قال : وفي السّمين : التفنيد : الإفساد، يُقال : فنّدت فلانا : أفسدت رأيه ورددته، وفي المختار : الفَنَد بالتحريك : الكذب، وهو أيضا ضعف الرأي من الهرم، والفعل منه : أفند، والتفنيد : اللّوم وضعف الرأي، وفي القاموس : الفَنَد بالتحريك : الخَرَف وإنكار العقل لهرم أو مرض والخطأ في القول والرأي "[61]

غير أنّه ليس في كلّ المواضع ينسب الأقوال إلى أصحابها أو يحيل إلى مظانّها، فقد يذكر القائل أو كتابه أو هما معا، وقد يغفل كلّ ذلك ويقول : قال بعضهم أو قيل بصيغة التمريض .

ب . تقديم التفسير المأثور إن ثبت على المعنى العربي: فإذا ثبت عند الشيخ رواية عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو عن الصحابة والتابعين إلّا وقدّمها وأحيانا يكتفي بها، فعند قوله تعالى : " كلّا إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين " [المطففين : 07] قال : " فسّره الله بقوله : كتاب مرقوم، أي : مسطور، قيل هو كتاب جامع لأعمال الشر الصادرة عن الشياطين والكفرة والفسقة ... لفي علّيين وما أدريك ما علّيون " فسّره الله تعالى بقوله : كتاب مرقوم : أي : مسطور، وقيل : مكتوب فيه أعمالهم وما أعد لهم في الآخرة من الكرامة، وهذا التفسير الإلهي يُغني عن تفاسير الخلق "[62]، وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن .

ج . تقديم الحقيقة الشرعية المرادة على الحقيقة اللّغوية : فدلالات الألفاظ قد تتغيّر عن أصل استعمالها العام في اللّغة، لتدلّ على الاسم الشرعي أو الحقيقة الشرعية، وهي مقدَّمة عل الحقيقة اللّغوية، كما قال صاحب مراقي السعود :

واللّفظ محمولٌ على الشرعيّ إنْ لم يكن فمطلقُ العُرفيّ
فاللّغوي على الجلّي ولم يجب بحثٌ عن المجاز في الذي انتُخِب [63]

والشيخ باي يعمل بهذه القاعدة ويُثبِت المعنى الشرعي للّفظة ويُقدّمه، فمثلا كلمة : (النسيء) الواردة في قوله تعالى : " إنما النّسيء زيادة في الكفر " [التوبة : 37] فسّرها بمعناها الشرعي فقال : " ... وكانوا يُؤخّرون تحريمه سنة ويُحرّمون غيره مكانه لحاجتهم إلى القتال، ثمّ يردّون إليه التحريم في سنة أخرى ،كأنهم يستنسئونه ..." [64]، فكلمة النسيء في أصل وضعها اللّغوي معناها التأخير، لكن بورُودها في القرآن الكريم أصبحت ذات حقيقة شرعية، حيث إذا أطلقت يُراد بها ذلك الفعل الجاهلي الذي ذمّه الله سبحانه . [65]

وفسّر (طيرا أبابيل) من قوله تعالى : " وأرسل عليهم طيرا أبابيل " [الفيل : 03] بحديث ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : أنّها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ "[66]

د . التنبيه على المعاني الراجحة أو المشهورة : رغم أنّ الشيخ باي في معظم كتابه يقتصر على جمع أقوال اللّغويين والمفسّرين، ويشير إلى مظانّها، إلّا أنّه أحيانا يُنبّه إلى الراجح أو المشهور منها : فعند قوله تعالى : " يخرج من بين الصّلب والترائب " [الطارق : 07] قال : حكى الزجّاج أنّ الترائب عُصارة القلب ومنه يكون الولد، والمشهور في اللّغة أنّه عظام الصّدر والنّحر "[67]

وعند قوله تعالى : " أنْ ينَزَّل عليكم من خير من ربّكم " [البقرة : 105] قال : " الخير : الوحي، وقيل غير ذلك، والظّاهر أنّهم لا يودّون أن ينزل على المسلمين أيّ خير كان، فهو لا يختصّ بنوع معيّن "[68]

وعند قوله تعالى : " قل أعوذ بربّ الفلق " [الفلق : 01] قال : " الفلق الصبح، وسمّي فلقا لأنّه يفلق عنه الليل، وهو فعل بمعنى مفعول، ويقال : الفلق هو واد في جهنّم والأوّل أولى "[69]

خاتمة : وفي ختام هذا العرض لمعالم التفسير اللّغوي عند الشيخ باي بلعالم رحمه الله من خلال كتابه : ضياء المعالم على ألفية الغريب لابن العالم يمكن تسجيل بعض النتائج :

للشيخ باي عناية بالغة الأهمّية بالجوانب اللغوية في القرآن الكريم، تجلّت في إيراده لكلّ صيغ المفردة القرآنية، وبيان معانيها ومعاني التراكيب .

تميزت مصادر اللّغوية بالتعدد والتنّوع، ممّا يدلّ على كثرة اطّلاعه على كتب التفسير وإلمامه بكتب اللّغة والمعاجم والأشعار، فجمع ثروة هائلة تصُبّ كلها في خانة التفسير اللّغوي .

يحرص الشيخ باي في تفسيره اللّغوي على إيراد ما أُثر من روايات وآثار وأقوال عن المفسّرين واللّغويين، وبذلك تميّز منهجه بالجمع بين أصول علم التفسير وقواعد اللّغة العربية .

هوامش :

[1] عبد المجيد قدي : صفحات من تاريخ منطقة آولف، أبحاث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2007م، ص 112.

[2] محمد باي بلعالم : الرحلة العلية إلى منطقة توات، دار هومة، 2005م ،ج 1، ص 366

[3] المرجع السابق : ص 113

[4] مساعد الطيار : التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط 1 1432هـ، ص 38 . 39

[5] الذهبي : محمد السيد حسين، التفسير والمفسّرون،، مكتبة وهبة، القاهرة ،ج 2 ص 259

[6] السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ت : فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ . 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 275

[7] محمد باي بلعالم : ضياء المعالم شرح على ألفية الغريب لابن العالم، مطابع عمار قرفي، باتنة، الجزائر، ج 1 ص 29

[8] نفسه ج 1 ص 55

[9] نفسه ج 1 ص 39

[10] نفسه ج 1 ص 96

[11] نفسه ج 1 ص 157

[12] نفسه ج 1 ص 64

[13] البّناني :حاشية العلاّمة البناني على جمع الجوامع، دار الفكر، ج 1، ص 20

[14] ضياء المعالم :ج 2 ص 66

[15] القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ . 1964م، ج 11 ص 274

[16] المرجع السابق :ج 2 ص 133

[17] خالد بن عثمان السبت : قواعد التفسير . جمعا ودراسة .، دار ابن عفان، الجيزة، ط1، 1421هـ، ج 1 ص 88

[18] ضياء المعالم : ج 1 ص 24

[19] نفسه ج 1 ص 67

[20] نفسه ج 1 ص 75

[21] نفسه ج 1 ص 151

[22] نفسه ج 2 ص 58

[23] نفسه ج 2 ص 65
[24] نفسه ج 2 ص 17
[25] نفسه ج 1 ص 118
[26] مكي ابن أبي طالب : أبو محمد القيسي، مشكل إعراب القرآن، ت : جاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1405هـ . 1985م، ج 1 ص 63
[27] ضياء المعالم : ج 1 ص 49
[28] نفسه ج 1 ص 73
[29] نفسه ج 1 ص 85
[30] نفسه ج 1 ص 105
[31] نفسه ج 1 ص 108
[32] نفسه ج 1 ص 178
[33] السيوطي : الاتقان في علوم القرآن، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ . 1974م، ج 2 ص 67
[34] ابن الانباري : إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، ت : محيي الدين، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1390هـ . 1971م، ج 1 ص 100
[35] ضياء المعالم : ج 1 ص 152
[36] نفسه ج 1 ص 178
[37] نفسه ج 1 ص 8
[38] نفسه ج 1 ص 51
[39] نفسه ص 18
[40] نفسه ج 1 ص 151 . 152
[41] نفسه ج 1 ص 153
[42] نفسه ج 2 ص 16
[43] نفسه ج 1 ص 19
[44] نفسه ج 2 ص 11
[45] نفسه ج 2 ص 29
[46] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، القاهرة، ط 3، 1413هـ . 1992، ص 146
[47] ضياء المعالم : ج 1 ص 71
[48] نفسه ج 2 ص 113

[49] الشوكاني : محمد بن علي بن محمد، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت : أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط 1، 1419هـ . 1999م ،ج 1 ص 63

[50] ضياء المعالم :ج 1 ص 108

[51] نفسه ج 1 ص 147

[52] نفسه ج 2 ص 87

[53] نفسه ج 2 ص 71

[54] نفسه ج 1 ص 184

[55] نفسه ج 2 ص 51

[56] دلائل الإعجاز : ص 106

[57] ضياء المعالم : ج 2 ص 26

[58] نفسه ج 1 ص 89

[59] نفسه ج 2 ص 109

[60] نفسه ج 1 ص 159

[61] نفسه ج 1 ص 179

[62] نفسه ج 2 ص 59

[63] عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي : نشر البنود على مراقي السعود، مطبعة فضالة، المغرب، ج 1 ص 135. 136

[64] ضياء المعالم : ج 1 ص 101

[65] نفسه ج 1 ص 102

[66] نفسه ج 2 ص 66

[67] نفسه ج 2 ص 60

[68] نفسه ج 2 ص 114

[69] نفسه ج 2 ص 68